أدب مهجر أم أدب منفى؟

كاتبات وكتّاب عرب يجيبون على السؤال في ملف مجلة «الجديد»

اللغة وطن الهاربين من جحيم الوطن (لوحة للفنان ساسان نصرانية)

تواصل مجلة الجديد الثقافية فتح ملفات محورية اليوم في الثقافة العربية ورهاناتها المعاصرة، حيث تناولت المجلة في عددها الـ69 قضية الأدب المهجري، الذي يرى الكثيرون أن تسميته لا تتوافق مع الراهن العربي وتشرد الأدباء في المنافي القسرية لا المهجر الاختياري. وقد قارب نقاد وكتاب من مختلف الجنسيات العربية هذه الظاهرة بشكل مختلف عن المألوف.

عواد علي
كاتب عراقي

كيف نعرّف المهجرية العربية الثانية وقد اتسعت لتشمل مبدعين ومفكرين من شتى المستويات والمرجعيات والمشارب والجنسيات العربية، هل ما زال في وسعنا الحديث عن "أدباء مهجر وأدب مهجري"؟ هل ما زال في وسعنا أن نطلق المصطلح الأول نفسه على نتاجات حملة الأقلام ومعهم الفنانون والمبدعون في مجالات السينما والمسرح والتشكيل وغيرها من الفنون الصادرة اليوم عن جمهرة عربية كبيرة من المبدعين المهاجرين والمنفيين؟

> مصطلح «المهجر» ومفهومه يبدو أقل إيلاما في تصوير الحالة من مصطلح «المنفى» الذي تلاه وهو إجباري

هذه الأسئلة وغيرها طرحتها مجلة "الجديد" الشهرية الثقافية على نخبة من الكاتبات والكتّاب العرب، وقد شكّلت إجاباتهم المتون التي قام عليها ملفها الواسع "أدب مهجر أم أدب منفى؟" في عددها الـ69 الذي صدر مطلع شهر أكتوبر الحالي. وهو ملف للتفكّر في هذه الظاهرة وأسئلتها، وبمنزلة دعوة مفتوحة للكتّاب والمفكرين العرب للإسهام في مناقشتها.

مهجر أم منفى

كتب رئيس تحرير المجلة الشاعر نوري الجراح في افتتاحية العدد عن "الشاعر في المنفى: سارق النار المعلق بين شقي الأخدود" حيث خلص إلى أن الشاعر وحده، برؤاه المغامرة، بغضبه، بانحيازه المطلق إلى جانب الحرية والمقاتلين لأجلها، قادر على اجتراح معجزة العثور على كلمات جديدة. ولكنه، في حالة الشاعر الذي كتب قصيدته بلغة عربية جعلتها مفردات المنفى مبهمة لقارئ عربي، ولغة عربية لا قاموس يفسّرها لأصحاب المنفى، سيبقى أبدا سارق النار المنفيّ مرتين، والمعلّق الخالد على أخدود العالم ونسر الاغتراب يأكل قلبه وكبده وعينه الرائيتين.

ويرى الناقد حاتم الصكر، في مقاله "المهجرية الجديدة: تساؤلات المصطلح والدلالة" أن مصطلح "المهجر" ومفهومه يبدو أقل إيلاما في تصوير الحالة من مصطلح "المنفى" الذي تلاه. وهو إجباري يجد المرء نفسه مرغما على اتخاذه مقرا، وقد تداوله أدباء شردتهم السياسة في أوطانهم.

وينتهي الصكر إلى التأكيد على أن مَهاجر اليوم تعددت قارّيا، ولم يعد بالإمكان الحديث عن مناخ جنوبي وآخر شمالي، فالمهاجرون الجدد وصلوا إلى دول آسيوية قصيّة وأخرى أفريقية.. ولكن الجديد في الحالة المعاصرة هو التواصل الشديد الذي منحته وسائط الاتصال بالأوطان وثقافاتها.

ويعتقد الناقد عبداللطيف الوراري، في مقاله "هجرات الأدب عندما تصير هويّات الكتابة بلا رسوّ"، أن بوسعنا اليوم النظر إلى المنفى، كما يرى منظّرو ما بعد الدراسات الاستعمارية، في اتّجاهين مختلفين: منفى مفروض وآخر اختياري، مُميِّزين بين المنفى والاغتراب، فالأول مفروض، حيث لا يستطيع المنفيُّ العودة إلى وطنه الأم حتى لو رغب في ذلك، أما الثاني فهو اختياري نشأ نتيجة رغبة المرء في مغادرة وطنه لأيّ سبب من الأسباب.

ويقف الناقد ممدوح فراج النابي، في مقاله "نوستالجيا الأوطان المفقودة: الأوطان في المخيّلة السّردية"، على نقل الروائيين العرب تجربة المَنْفَى إلى المجاز، استجابة لميراث عريض يُحرِّض المقموعين على المواربة والتعريض والتورية، وبصورة أجمل إلى التقيَّة.

ويحلل النابي نماذج دالّة من هذه الكتابات التي أنهكها الحنين والبحث عن أوطان بديلة، وأيضا الذين يعيشون في أوطانهم (المنفيون في الداخل) وثمة مسافة زمكانية تفصلهم عنها، وتجعلهم يشعرون بالحنين إليها، ومن ثمّ صَارت صورة الوطن تتراوح بين مجرد حُلم، وبين مجرد كذبة بيضاء. أو حتى بين مجرد سؤال لا جواب له.

ويستأنف الناقد عبدالله إبراهيم، في مقاله "آداب المنافي بدلا من آداب المهجر"، التذكير بأنه آن الأوان لتنشيط جدل ثقافي ينتهي بإحلال عبارة "كتابة المَنْفَى" محل عبارة "كتابة المهجر"، بعد مرور أكثر من قرن على استخدام مصطلح "أدب المهجر".

وحجّته في ذلك أنّ كتابة المنفَى مزيج من الاغتراب والنفور، وتراوح في منطقة الانتماء المزدوج إلى هويتين متباينتين، ثم، في الوقت نفسه، عدم إمكانية الانتماء لأي منهما، وهي كتابة كاشفة تقوم على فرضية تفكيك الهوية الواحدة، وتقترح هوية رمادية مركّبة من عناصر كثيرة. ويختلف "أدب المنفى" عن "أدب المهجر" اختلافا واضحا، كون الأخير حبس نفسه في الدلالة الجغرافية، فيما انفتح الأول على سائر القضايا المتصلة بموقع المنفِيّ في العالم الذي أصبح فيه دون أن تغيب عنه قضايا العالم الذي غادره.

الفشل في الاندماج

يتساءل الناقد مولود بن زادي في مقاله عن كيفية تمييز الأدب المهجري من المحلي في المهجر، فالأدب المهجري أوسع من أن يُحصر في إطار مكاني أو زماني ضيق. فهو جغرافيا واسع سعة العالم الذي نحيا فيه ونرحل في أرجائه، وتاريخيا قديم قدم الأدب الذي ورثناه عن أجداد معروفين بترحالهم منذ قديم الزمان. ويتواصل هذا الأدب اليوم بعيدا عن الأضواء في كامل بقاع الدنيا معبرا عن مشاعر عميقة صادقة صقلتها حياة مختلفة في بيئة جديدة، تشارك فيها أقلام متأثرة بالحياة فيها، تحيا فيها الهجرة بأدق معانيها.. أقلام اكتشفت بين أهاليها -من أجناس بشرية وانتماءات دينية مختلفة- أسمى معاني الإنسانية، فطبع كل ذلك كتاباتها وميزها من مؤلفات الأوطان.

ويلقي الكاتب محمد الحجيري نظرة على أجيال الكتابة اللبنانية المهاجرة، موضحا أن الهجرة اللبنانية كانت موجات وحصلت بأعداد كبيرة على مراحل، وإذا كانت هجرة البدايات أنتجت "أدب المهجر"، فإن الهجرة في العقود القليلة الماضية صارت تأخذ أبعادا أخرى مختلفة.

ويخصص الناقد لونيس بن علي مقاله لروايات الجزائري عمارة لخوص، فيقول إن إيطاليا تتحول في روايته "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" إلى الذئبة التي وردت في أسطورة تأسيس روما، والمهاجر إلى ابنها غير الشرعي، فكيف له أن يرضع منها دون أن تلتهمه؟ سؤال ذكي طرحته الرواية ابتداء من عنوانها. ويستمر لخوص في روايته "القاهرة الصغيرة" في النهج نفسه، أي الكتابة عن المهاجرين العرب في إيطاليا، وهذه المرة في حي يقطنه المهاجرون يسمّى بالقاهرة الصغيرة، حيث تحول الاندماج، إلى مهمة أمنية، تقتضي تحول البطل من هوية إيطالية إلى شاب تونسي ومسلم.

ويقدم الناقد مفيد نجم، في مقاله "العنونة المكانية في روايات المنفى السوري"، قراءة في عناوين الأعمال الروائية التي نشرت خلال سنوات الانتفاضة السورية الماضية، مثل روايات عبدالله مكسور "أيام في بابا عمرو"، "عائد إلى حلب" و"أبناء البحر" وروايتي شهلا العجيلي "سماء قريبة من بيتي" و"صيف مع العدو"، ورواية "مدن اليمام" لابتسام تريسي، و"تل الورد" لأسماء معيكل، و"خمارة جبرا" لنبيل ملحم، و"لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة" لخالد خليفة، و"زئير الظلال في حدائق زنوبيا" لسليم بركات، ولا ماء يرويها" لنجاة عبدالصمد، و"قميص الليل" لسوسن حسن و"وادي قنديل" لنسرين خوري.

ويرى نجم أن عناوين هذه الروايات يمكن أن تشكل مدخلا لهذه القراءة بحمولاتها الدلالية الهامة، لاسيما ما يتعلق منها بالدوافع العميقة التي تتولد عنها هذه الدلالات والمعاني على المستويات الوجودية والإنسانية والسياسية أيضا.

أما الكاتبان سعيد خطيبي وحميد زناز، فيكتبان عن تجربتيهما في بلدين أوروبيين، الأول في سلوفينيا، حيث لا يشعر فيها أنه مهاجر، ويزاول عمله نفسه كما كان في الجزائر، ويكتب كما كان سلفا عن قضايا تشغله في التّاريخ، وفي تراكمات ما بعد الكولونيالية. والثاني في فرنسا، مؤكدا أنه تحرّر في المنفى من الجاذبية الثقافية المحلية، ونافيا وجود أدب أو فكر مهجري له خصائصه كما كان سائدا في الماضي، وأن الفصل لم يعد ممكنا، فابستطاعتك أن تجد في عز الغرب لدى المهاجرين والمنفيين فكرا أصوليا متخلفا بينما تعثر في بلدان الشرق على فكر حداثي راق.

وفي إطار الملف ذاته، يختم مؤسس المجلة وناشرها هيثم الزبيدي العدد بمقال طريف عنوانه "لا أدب اغتراب ولا هم ينغرسون" يقول فيه "لا أعرف إن كان بوسعنا الاستمرار في استخدام مصطلح 'الاغتراب الأدبي'. مرّ على وجودي في المهجر أكثر من 30 عاما، وأستطيع أن أدّعي أن الأدب في الغربة كائن غير موجود".

ويرى الزبيدي أن المصطلح لكي يصح ويستقيم استخدامه ينبغي أن يكون هناك "مغترب أدبي" لكي ينتج أدبا مغتربا، في حين أن البيئة التي يعيش فيها "الأديب" و"المثقف" المهاجر، أو المهجّر أو المزاح جغرافيا، هي بيئة بعيدة كل البعد عن فكرة الاغتراب بالمعنى الكلاسيكي، أي الانتقال جغرافيا وفكريا إلى بيئة جديدة، ثم الكتابة الواعية عن روح أدبية أو فكرية أو ثقافية غرست في أرض جديدة. القليلون من الاستثناءات لا يمكن أن يعدّوا ظاهرة، بل السؤال الأصعب والأكثر إثارة للقلق: كيف يمكن أن تهاجر كل هذه الآلاف من الأدباء والمثقفين وتعجز عن أن تجد غرسا في بيئتها الجديدة؟

قصص تونسية تنهل عوالمها من البحر

تونس – تدور أغلب أحداث القصص "خيال الموج"، المجموعة الجديدة للقاصة والكاتبة التونسية هيام الفرشيشي، في فضاءات بحرية.

ومن بين القصص التي نجد فيها حضورا بارزا للموج نذكر القصة التي حملت المجموعة عنوانها "خيال الموج"، وقصص "طائر السماء"، "كوابيس مبقعة بماء المطر"، "للخفاش أثر"، ودارت أحداثها في مدن أثرية، جبلية، وأخرى صناعية، وكانت بمثابة النوافذ على عمق البحر وارتفاع موجه من شرفات عالية.

تعددت صور الموج وأصواته في نصوص المجموعة القصصية، الصادرة عن "دار الثقافية للنشر" بتونس، وظلت انعكاسا للحالات الداخلية للشخصيات القصصية الباحثة عن الوحدة والعزلة أو الاستراحة من كوابيس الواقع، لينكشف الجانب المستتر من البحر صورا للواقع، بينما يمنحها الجانب الظاهر فسحة للتخيل والخلق، وبلورة ثنائية كوابيس الواقع ورؤى الإبداع.

تنعكس مشاهد الواقع من خلال تأمل الموج وما يضج به هديره من صخب ورهبة، وتتحول الصور الخارجية إلى صور من اللاوعي، في تبادل واضح بين الظاهر والباطن، فكان الموج خير مرآة لحقيقة ما يجري، وخير قادح لبث شحنة الحركة الذهنية والروحية كلما تأملته الشخصيات باغتها الإبداع.

علاقة الشخصيات بالموج علاقة قديمة ذات وشائج متواصلة، ترسخ حضورها علاقة مع الآخر القادم عن طريق الموج لينهب الثروات في قصة "طائر السماء"، مقدما نفسه كباحث في التاريخ القديم، وهو الآخر الذي توغل عميقا في رحلة النهب والتنقيب عن الكنوز في فضاء جبلي بعيد عن البحر في قصة "أهازيج ناي جنائزي" مستعينا بعصابات مسلحة متطرفة تذبح وتنكل بمن اقترب من مخابئها، بل هو الآخر المستعين بالشيخ ودراويشه في قصة "غافية على ركبة الزمن" لتهريب السلاح، وهو الآخر المستعين بصاحب العمامة للسيطرة على العقول واشتراء الذمم عن طريق المال في قصة "صاحب العمامة"، وهو من لقن عقيدة وطقوس النار في قصة "شياطين الغابة" لحرق الغابات وتشريد الناس وتهريب الفحم، الآخر المسيطر على الأذهان وعلى تحويل الشخصيات إلى حطب لمخططاته.

> الساردة تتحكم في خيوط لعبة القص انطلاقا من تجاربها الخاصة ومصادرها الذاتية في تشكيل مشاهد قصصها

وفي تناول الساردة لهذه المواضيع حاكت سردياتها لكشف المستتر من الأحداث. ويتدخل صوت الراوي في أكثر من قصة ليثير هذه النقاط كأن تجد الراوية في هدير الموج الصاخب صدى لحكايات منسية في أعماقه، في قصة "طائر السماء". بل إن صوت الموج هو ارتداد للذاكرة البعيدة تستعيد صورا وأصواتا ووجوها آدمية وهلامية تجوب عبرها ذاتها منعطفات الماضي.

وشبهت ما يحمله الآخر عبر الموج من سموم بمثابة الزبد في قصة "كوابيس مبقعة بماء المطر"، فحين يهدر يفرز رغوة الموج المتناثر، يرتطم على الرمل ثم يرتد للأعماق.

تتحكم الساردة في خيوط لعبة القص انطلاقا من تجاربها الخاصة ومصادرها الذاتية في تشكيل المشاهد. فالهدف من الكتابة تشكيل تمثلات الذات في علاقتها بالواقع، الهدف من الكتابة التعبير عن الضوء وخصوبة الأعماق، والمرور إلى مرحلة الحلم. فللموج طاقة نورانية حين يمتزج بالشمس والمطر ليكتسب بعدا جديدا وهو اندفاع الحركة الباطنية وبعث الحياة واستمرارها في الوعي واللاوعي.

الموج يختزن كل عناصر الأمومة أمومة الماء العذب (المطر)، يحتضن نور الشمس، يحتضن الفتاة التي تغوص في أعماقه كأنها تعود إلى رحم أمها ليحميها من الواقع الخارجي الذي يهددها.

حمص تستضيف أول معرض كتاب خاص بالرواية

حمص (سوريا)- أكثر من عنوان جمعها معرض الرواية السورية والمترجمة الذي يقام للمرة الأولى وتستضيفه مدينة حمص بمشاركة مؤسسات ودور نشر سورية.

ويقام المعرض، الذي تستضيفه صالة مكتبة الإرشاد للنشر بحمص، بالتعاون بين مديرية الثقافة وفرع اتحاد الكتاب العرب بحمص.

وفي حديثه عن هذه الفعالية قال مدير دار الإرشاد للنشر عبدالجبار الجندلي إن فكرة هذا المعرض ولدت من اهتمام أغلبية القراء بالرواية والقصة وتأثرهم في الوقت نفسه بالوضع الاقتصادي ما دفع إلى إطلاق فعالية تروي لجمهور القراءة شغفه وتراعي ظرفه مبينا أن الإصدارات المعروضة تتضمن روايات سورية ومترجمة من اتحاد الكتاب العرب ومديرية الثقافة مع حسومات تفوق 50 في المئة، حيث أدى الإقبال الشديد على المعرض إلى تمديده لمدة أسبوع مع زيادة الحسومات على الروايات.

ورأى رئيس فرع اتحاد الكتاب العرب بحمص عبدالرحمن البيطار أن القراءة لن تنتهي رغم أنها تواجه تحديات كبيرة ما دعا إلى دعم شريحة القراء، لافتا إلى أن المعرض يحمل خصوصية لكونه مختصا بالرواية والتي تعتبر من الأجناس الأدبية المهمة في تطوير اللغة والحركة الفكرية لقربها من القراء ومعالجتها القضايا العامة بأسلوب قائم على الحوار والسرد السلس.

وأشارت الكاتبة سريعة حديد إلى غنى وتنوع العناوين المعروضة وخاصة الروايات العالمية بترجمة سورية والروايات الفائزة بجوائز، بالإضافة إلى التعرف على الروايات السورية التي لم تأخذ نصيبها من الشهرة ما يؤدي إلى تسليط الضوء على الأدب والحركة الثقافية في سوريا.

الروايات تستقطب القراء